القول السديد

في دلالة ابتسامة الشهيد

بقلم:

د. محمد طرهوني

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

القول السديد

في دلالة ابتسامة الشهيد

بقلم:

د. محمد بن رزق بن طرهوني

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقد تكرر السؤال عن موضوع ظهور ابتسامة على وجه شخص ما عند الموت خاصة الشهداء ما دلالة هذا؟

وقبل أن نباشر الجواب نذكر مقدمتين أساسيتين:

الأولى: نحن أهل السنة والجماعة من المسلمين نؤمن بالكرامات فلن نخوض في دلائل ثبوتها، ولكن هل حصول الكرامة لشخص ما في زمن ما يستلزم سبقا لحصولها في زمن النبي ﷺ وأصحابه الكرام؟

نقول: ليس ذلك بلازم، فالكرامات تأتي حسب الحاجة، فلربما لم تتوافر الدواعي لحصول هذه الكرامة بعينها لوجود ما يغني عنها، أولم يكونوا الصحابة في حاجة لمثل ذلك فالحق كان واضحا لديهم والطريق ظاهرة، فلم تفترق الأمة شيعا كما حصل الآن وكل يدعي وصلا بليلى فاقتضى الأمر حصول كرامات يستأنس بها أصحاب الحق في سيرهم إلى الله.

وقد يكون قد حصل ولم ينقل لنا فلا ننسى أن عدم العلم بالشيء لا يعني عدمه، فقد يكون وجد ولم يحفظ لنا؛ لأنه ليس من الدين الذي تكفل الله بحفظه وكم من وقائع ذهبت في خضم أحداث التاريخ.

الثانية: هل حصول الكرامة لشخص ما، يستلزم حصولها لشبيهه أو من هو أفضل منه؟

الكرامة يشابهها اللعنة من جانب أنه ليس شرطا أن تنطبق على كل من شارك صاحبها في سبب حصولها له، فمثلا في زمن النبي ﷺ رفضت الأرض أن تقبل دفن مرتد، وتعجب الصحابة من ذلك، فكان جواب النبي ﷺ: إن الأرض تقبل من هو شر منه، ولكن أراد الله أن يريكم آية، ومثلا النجاشي كان الناس يتحدثون أنه ينبعث من قبره نور ولم يحفظ مثل ذلك لا لرسول الله ﷺ، ولا لأحد من مشاهير الصحابة، وكان خبيب يأكل عنبا في الأسر، ولا يوجد بمكة عنبة واحدة، ولم ينقل حدوث ذلك لرسول الله ﷺ بل جاع مرارا وربط بطنه من شدة الجوع، وخاصة عام الأحزاب، وعندما مات ابن عباس خرج من نعشه طائر وسمع صوت يقرأ: يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، ولم يحصل هذا لغيره من الصحابة، وكلهم صحابة كرام، وقد حمى الله جسد عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الشهيد يوم الرجيع من المشركين، فلم يصلوا إليه في حين بقرت هند

بطن حمزة الشهيد يوم أحد، ولاكت كبده، والثلاثة الذين آووا إلى الغار، فتحركت الصخرة بتوسلهم بأعمالهم الخالصة، ولم ينقل أن مثل ذلك حصل لغيرهم مع توافر الدواعي لحصول ما يشابه ذلك من مآزق ومواقف للنبي ﷺ وأصحابه فضلا عن غيرهم، وحتى لا نطيل نكتفي بذلك ونقول:

إن حصول الابتسامة على وجه شخص ما، علامة على حسن خاتمته، مثل أي علامة أخرى تدلل على كون الشخص كان مستبشرا في لحظاته الأخيرة لحظات الاحتضار، ونحوها انبعاث الرائحة الزكية منه، ومثلها خفة جنازته وإسراعها للمسجد للصلاة عليه وإسراعها إلى مدفنها أو سماع آية معينة دون ترتيب تتعلق بحال الميت، وكذا موته ساجدا أو صائما أو حاجا ونحو ذلك.

وقد قال الشيخ الألباني -رحمه الله-: أما رائحة المسك فككرامة يمكن أن يكون ذلك، ولكن القضية تحتاج إلى تَرَوٍّ وتَبَصُّر في رواية هذه القصص التي تنقل عن بعض المجاهدين من فوحان رائحة المسك بالنسبة لبعضهم، فقد تناقضت الأقوال في هذه المسألة فبعضهم أنكرها أشد الإنكار، وبعضهم أقرها مؤكدًا صحتها، ومنهم الشيخ عبد الله عزام -رحمه الله- أكد ذلك في غير ما حديث له. اهـ

وقد ورد في الحديث عرق الجبين عند الاحتضار وهو ليس بلازم، فلم يحفظ لكثير من خيار الأمة بل من المشهود لهم، وكذا نُطْقَ إنسانٍ مُعَيَّنٍ بالشهادة قبل موته: فإنه بشارة له أنه خُتِمَ له بالحسنى، ويرجى له المغفرة حتى وإن كان سابقته سيئة فالأعمال بالخواتيم، وقد أراد الله له حسن الخاتمة، ولذا كان جبريل يأخذ من حال البحر فيدسه في فم فرعون؛ حتى لا يتشهد قبل الغرغرة فتناله الرحمة.

ومن ذلك رفع السبابة وهو كذلك يستأنس به، وبعضه متكلف أو يكون وضعا عاديا لشكل اليد فليس بعلامة واضحة.

وكذا الموت يوم الجمعة وليلتها عند البعض، وقد صحح الحديث الشيخ الألباني -رحمه الله- وقد استدركنا عليه التصحيح والصواب ضعف الحديث، ولو صح فهو من دلائل حسن الخاتمة وليس بدليل جازم إنما يستبشر به أيضا.

وهذا كله على وجه الاستبشار والتفاؤل، وليس على وجه الجزم، وهو أيضا إشارة لصحة ما كان عليه هذا الشخص في حياته، وإلا فما معنى أن يتلبس بخاتمة حسنة وشواهد على حسنها إن كان على ضلال وزيغ في

حياته، فالله سبحانه منزه عن أن يلبس على الناس بمثل ذلك، فما يحصل للميت بعد موته لا يملكه سوى الله سبحانه، ولا ينتفع به إلا الأحياء من بعده، اللّٰهم إلا تحصيل الدعاء للميت عند ذكره بالحسن.

وقد نص العلماء على أن تبسم الموتى من علامات حسن الخاتمة، وهذا دليل اشتهار ذلك عندهم، كما حكاه الغزالي في «الدرة الفاخرة» والقرطبي في «التذكرة»، وقد روي في ذلك حديث لا يثبت نقله القرطبي وغيره وفيه: «أن إبليس -لعنه الله- وكل أعوانه يأتون الميت على صفة أبويه على صفة اليهودية، فيقولان له: مت يهوديا، فإن انصرف عنهم جاء أقوام آخرون على صفة النصارى حتى يعرض عليه عقائد كل ملة، فمن أراد الله هدايته أرسل إليه جبريل فيطرد الشيطان وجنده، فيبتسم الميت».

وليس -فيما نعلم- نص صحيح صريح بأن التبسم عند الموت من علامات حسن الخاتمة، ولكن هذا يفهم من عدة نصوص، فإن المحتضر -إن كان من أهل السعادة- فإنه كما في حديث البراء بن عازب الطويل الشهير: يرى ملائكة الرحمة بيض الوجوه معهم أكفان من الجنة وحنوط من الجنة، ثم يأتي ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فقد يبتسم المحتضر لذلك، وهذا بخلاف من كان من أهل الشقاوة، فإنه يرى ملك الموت في صورة أخرى، ويرى ملائكة العذاب سود الوجوه، معهم أكفان من النار، وحنوط من النار، ثم يأتي ملك الموت ويجلس عند رأسه، ويبشره بسخط الله عليه، ويرى منزلته من النار، ويقول ملك الموت: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، أبشري بسخطٍ وغضبٍ من الله.

ومما يدل على هذا أيضاً ما رواه أحمد عن طلحة بن عبيد الله عندما زاره عمر وهو ثقيل، وفيه: "إني سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً ما منعني أن أسأل عنه إلا القدرة عليه حتى مات، سمعته يقول: إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند موته إلا أشرق لها لونه، ونفس الله عنه كربته، قال: فقال عمر: إني لأعلم ما هي، قال: وما هي؟ قال: تعلم كلمة أعظم من كلمة أمر بها عمه عند الموت: لا إله إلا الله؟ قال طلحة: صدقت هي والله" ومحل الشاهد من الحديث قوله: إلا أشرق لها لونه.

وهذا صريح جدا في إشراقة الوجه عند الموت، وليس في الآخرة كما يحاول البعض لي عنق الحديث للهروب من دلالته.

فهل يعقل أن يرى المحتضر ملائكة العذاب يضربونه ويوبخونه، وينكشف له أنه من أهل العذاب، فيبتسم ويشرق وجهه، ويصفى لونه؟ أم أن البديهي أن يعبس، ويتربد وجهه، ويسود لونه؟

وهذه الحال حال المحتضر لا يملك الإنسان فيها نفسه، فلا سحر هنا ينفع، ولا حيلة تنجع، فإن المحتضر عندما يكشف عنه غطاؤه ويرى ملك الموت ومن معه وتعتريه السكرات كل ما يحصل له خارج عن إرادته.

ثم نقول: فإذا كان المشهور عمن يظهر منه شيء من ذلك أنه صاحب ضلالة أو فساد فيؤول ذلك كأي أمر آخر يلجأ له للتأويل، كما نفرق بين الكرامة والسحر والشعوذة، فمثلا كافر معروف بكفره مات على ابتسامة فيقال: لعله كان يكتم إسلامه ككثير من الكفار، ومثلا الفاجر يقال: لعله تاب في آخر حياته، وكان بينه وبين الله خبيئة غفرت له، أو يقال: هذه ليست ابتسامة وإنما ارتخاء في عضلات الفم أشبهت الابتسامة ونحو ذلك.

وقد أكثر بعض المناهضين للمجاهدين ممن يتهمهم بالضلال والانحراف العقدي وأنهم خوارج ونحو ذلك من الأباطيل الاستدلال بصور قليلة جدا لبعض الكفار، زعموا أنها باسمة وهي في الحقيقة لو كانت كما زعموا فعلا لكان تخريجها على ما سبق بيانه، كيف وهي في الواقع لا تخلو من أن تكون:

- مزورة ملعوبا فيها بالفوتوشوب كما في صورة القسيس التي يتداولونها وكما في صورة جيفارا.

جيفارا

القسيس

- أو أنها بعد أن عمل للميت تعديلات، فمعلوم أنّ بعض أموات أغنياء النصارى يتم تجميلهم قبل مراسم الجنازة، بمساحيق التجميل، وقد يصل الأمر إلى نفخ الخدين والشفتين لبث الحيوية في الجثة، وقد قال صاحب هذا النقل إنه يعرف ذلك منهم وليس منقولا بواسطة، قال: وفي الجملة، فالكذب

مجرب على هؤلاء، فليست المسألة مسألة صورة وصورة، بل خبر وخبر، أحدهما متواتر والآخر لا يتماسك.

والشأن في المجاهدين ليس الصورة، بل الخبر المتواتر عن رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه،

والشأن في المخالفين هو الصور التي لا دليل عليها، وهي معارضة بصور أصدق منها.

فإن من كان مناصرا لدين الله فيما يعلن، ومات مجاهدا فيما يدعي، وقتل بيد الكفار أو عملائهم المجاهرين بفسقهم وفجورهم من كبائر الذنوب، ولو لم يحكم بردتهم فمثل هذا ابتسامته دلالة خيرية فيه وفي منهجه لا محالة، لاسيما إذا تكرر ذلك من أمثاله في العمل والمنهج، فتواطؤ حالاتهم تثبيت من الله لمن هو على نفس عملهم ونفس منهجهم لا يقال في ذلك إلا ذلك، والشهداء الذين تكرر فيهم هذه العلامة في زماننا، ومثلها رائحة المسك، وبقاء الأجساد، ونزف الجروح للدماء بعد سنوات، يعجب الناظر في أمرهم من الفارق العجيب بينهم وبين أعدائهم من عبوس الوجه واسوداده، وتعفن الجسد، وانبعاث الروائح الخبيثة منه، وانتفاخه وتفتته في وقت قصير جدا ربما لا يتجاوز الساعات.

صور جيف الرافضة

صور شهداء الخلافة

فهل كل هذه الفروق لا لشيء؟ لا يقول هذا إلا مبرسم.

وتلجم هذه المقارنة من يحاول الالتفاف على هذه الدلالة بتفسيرات تشريحية لمحاولة إجهاضها، محاربة لأصحابها ومنهجهم كما سيأتي تفصيله.

ولا نعدم في مقال كهذا أن نمثل لشهيد -نحسبه كذلك- وما كسى محياه من ابتسامة مشرقة مع تاريخ جهادي مشرف حافل، وهو الأخ أبو العباس المدني، وهذا الفيديو يحكى قصة جهاده واستشهاده وصورته الباسمة بعد الوفاة.

http://www.youtube.com/watch?v=4uRzahLe9KY

والصورة المرفقة هي صورة من أوائل التسعينات أيام أحداث البوسنة، قبل أن تحصل تدخلات الفوتوشوب ونحوه.

فإن قال قائل: لماذا لم ينتشر هذا الأمر وينقل عن الصحابة أو من بعدهم من السلف الصالح؟

قلنا: سبق في أول المقال أن ذلك ليس بلازم على أنه قد نقلت أمور أخرى غير الابتسامة، منها عدم تآكل الجسد كما سيأتي، ومنها نزيف الدم ،ومنها النور كما في النجاشي، وليس شرطا أن تجتمع كل الكرامات في الأخبار، المهم وجود أصلها.

هذا وقد ذكر بعضهم أسباب ابتسامة الشهيد مستوحيا ذلك من إشارات قرآنية غير مسلمة، ولكنها لطائف يستأنس بها فقال:

١- يبتسم؛ لأنه لا زال حيا رغم مقتله، لقوله تعالى: **(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ...)**.

٢- يبتسم؛ لأنه إلى جوار ربه وقد فارق دار الشقاء إلى دار السلام عند ربه؛ لقوله: **(عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)**.

٣- فرح يبتسم؛ لنيله الشهادة ذاتها، فقد نال الفضل الذي طالما تمناه على ربه، بدليل البيان الإلهي: **(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)**.

٤- فرح مبتسم للبشارة التالية، أي بالفضل التالي: **(يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ)**.

٥- مبتسم؛ لعلمه أنه تجاوز فتنة القبر، وعرض النار **(أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)**.

٦- مبتسم؛ لعلمه القاطع أن ذنبه قد غفر لقوله ﷺ: «للشهيد سبع خصال منها: يغفر له مع أول دفقة من دمه».

٧- ويبتسم؛ لأن رأسه يكون على حجر زوجتيه في الجنة من الحور العين، كما في بقية الحديث السابق: «والثانية: يقع رأسه في حجر زوجتيه من الحور العين، وتمسحان الغبار عن وجهه».

٨- ويبتسم للثالثة وهو يرى كسوته: «والثالثة يكسى من كسوة الجنة».

٩- يبتسم للرائحة التي يشتَمُّها: «والرابعة تبتدره خزنة الجنة بكل ريح طيبة أيهم يأخذه معه».

١٠- والخامسة مبتسم؛ لأنه يرى مقعده ومنزله من الجنة ويثق بوعد ربه وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ.

١١- والسادسة مبتسم؛ لأنه يقال لروحه: اسرحي في الجنة حيث شئتي.

١٢- والسابعة مبتسم؛ لأنه ينظر في وجه الله وإنها لراحة لكل نبي وشهيد.

وقد تواترت الأخبار عن الشهداء في فلسطين، وأفغانستان، والشيشان، والعراق، وسوريا، وغيرها أن أجسادهم تبقى غضة طرية، ورائحة المسك تنبعث منهم، وينزف دمهم، وغير ذلك مع أن بعض الشهداء قد مضى على استشهاده سنون وعقود، بل حتى قرون، وأصل ذلك ثابت للصحابة، وإن لم يذكره النبي ﷺ في حديث صحيح عنه، ومن ذلك لما أجرى معاوية رضي الله عنه العين أخرج شهداء الصحابة

لينة أجسادهم تتثني أطرافهم، ومن هو في مثل حالهم العادة فيه التحلل والعفن، ولما أصاب السيل شهداء أحد بعد ستة وأربعين سنة، وكشف عنهم وجد عبدالله بن حرام وعمرو بن الجموح كما هما، والعادة في مثلهم أن تتحلل أجسادهم، وليس هناك دليل على أنّ جميع الشهداء لا تتحلل أجسادهم، ولكن خلاف العادة في هذين الصحابيين ونحوهما كان علامة على حسن الخاتمة عند جميع العلماء بما يشابه حال الأنبياء في تحريم أكل أجسادهم على الأرض ولو لفترة لا دائما.

والقصص الواقعية عن المغسلين من الدعاة الثقات في علامات حسن الخاتمة وسوئها على أجساد الموتى وارتباطها الوثيق بحال الميت في حياته متواترة، لا ينكرها إلا جاحد وهذا يستوجب طردها واستجلاب دلالاتها.

ونظرا لانتشار شبهة أن حالة الابتسام تتعلق بأمور طبية فسيولوجية تعرض للميت سببها ارتخاء العضلات، ننقل كلام أهل الاختصاص التي تنسف هذه الإشاعة من أساسها فأهل الطب يعرف جميعهم، وخاصة من كان في الطب الشرعي أو باختصاص العناية المركزة حيث يشاهد الأموات بكثرة يعرف أن الابتسامة خلاف العادة حيث إن سبب الابتسامة يكون انقباض العضلات لا ارتخاؤها، كما يحدث في حالات التيتانوس في علامة تعرف باسم risus sardonicus حيث تنقبض عضلات الوجه، فيظهر المريض وكأنه في حالة ابتسام، أما ارتخاء العضلات فيؤدي إلى عجز المريض عن الابتسام، مثل حالات شلل العصب الوجهي، حيث تجد أن الجهة التي فيها الشلل لا تتحرك حال الابتسام أو الكلام، وعليه فالمتوقع لحظة الموت ألا تكون هناك ابتسامة، ووجود الابتسامة عند الموت خلاف العادة، ومن عاين الأموات عرف ذلك يقينًا.

يقول الدكتور وليد أحد الاستشاريين المتخصصين: أنا طبيب استشاري وقد أكون أكثركم حضورا لدى الأموات، والله ثم والله ثم والله لم أر على سنين ممارستي كلها أي ميت يموت متبسما إلا واحدا، بل بالعكس يموت فاتحا فاه بطريقة ترعب أحيانا لذلك نغلقه ونغلق العينين، أما أن تقول: يموت ويكون فيه ما يشبه الابتسامة لارتخاء العضلات؛ لذلك يغلقوا الفم، فهذا مرفوض إلا أن تقول إنها حالات خاصة، أما عن ذلك الواحد فكان في عيد الأضحى المبارك يوم الجمعة في آخر ساعة من العصر وفي منى بالتحديد، عندما كنت مكلفا برئاسة مستشفى منى للحج العام المنصرم فوفد إلينا أحد

الأشخاص باكستاني الجنسية يحمله صديقه بين يديه وهو ضاحك، حتى إنه عندما دخل صديقه فزعا يطلب النجدة حسبته يمزح وعند التأكد وجدناه بلا نبض وبلا نفس وطوال فترة الإنعاش القلبي وهو مبتسم بل ضاحك، حتى والله إن الكل خرج بعد إعلان ساعة الوفاة إلا أنا بقيت أتأمله وأستأنس بالنظر إليه، وعندما أخبرت صديقه بأنه توفي قال لي: كان يجمع الأموال منذ زمن بعيد فقط لكي يستطيع أن يحج بها وإن أمنيته كانت أن يموت في مكة، هذا هو الوحيد الذي رأيته مبتسما طبعا تركناه بإحرامه وأوصيت المنظفين عدم نزعه عنه لأنه سيكفن به، وسيبعث به بإذن الله.

ويقول د .هشام وهو خبير طبي آخر: أنا من خلال خبرتي الطبية التي تمتد لحوالي عشر سنوات تقريبًا تنقص أو تزيد لم أشاهد أحدًا يموت مبتسمًا، لا فور الوفاة ولا بعدها بفترة، والابتسام في هذا المقام ليس له تفسير طبي تقليدي أبدًا، بل لا أجازف إن ذكرت أنه شبه مستحيل من الناحية الطبية؛ لأنه إن حاولنا تبرير الابتسامة بانقباض عضلتا الوجنتين من الجانبين، فسوف نعجز عن تبرير لماذا لا تنقبض سائر عضلات الوجه بنفس الآلية، ومنها العضلة الدائرية المحيطة بالفم والتي تضم الشفتين إلى بعضهما البعض، ومنها عضلات الجبهة والتي تجعلها تنكمش وتعقد الحاجبين، وغيرها من عضلات الوجه التي يستلزم انقباضها ارتسام تعبير عنيف لا يمت بصلة للابتسامة، هذا إذا سلمنا -جدلاً- بكون انقباض عضلات الوجه يقع عند الوفاة، والواقع فعلاً أنه لا يقع، بل ما يحدث هو تخشب العضلات على وضعها وتيبسها كما هي.

ولا يفوتنا قبل أن ننهي مقالنا: أن ننبه إلى أنه لا يوجد دليل شرعي على أن اسوداد الوجه وتغيره عند الموت يكون علامة من علامات سوء الخاتمة، لكنه يكون قرينة إذا كانت سيرة الميت في حياته سيئة وعلى من رأى شيئا من ذلك أن يستره ولا يتكلم به في الناس إلا بإبهام صاحبه للتحذير من سلوك مسلكه السيء، وذلك رعاية لحق أخيه المسلم، وصونا لحرمته.

وقد نَقَلَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ القول بأنه إِنَّمَا أُمِرَ بِتَغْطِيَةِ وَجْهِ الْمَيِّتِ لِأَنَّهُ رُبَّمَا يَتَغَيَّرُ تَغَيُّرًا وَحْشِيًّا مِنْ الْمَرَضِ، فَيَظُنُّ مَنْ لَا مَعْرِفَةَ لَهُ مَا لَا يَجُوزُ" انتهى.

نسأل الله أن ينير بصائرنا ويرزقنا حسن الخاتمة بالشهادة في سبيله، مقبلين غير مدبرين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.